الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

لم يختلف الدارسون فى شىء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين ، ولقد صاغت المشكلة ذاتها فى سؤال ذى شقين ، هل كان وضع قسطنطين عن المسيحيين اصرهم والاغلال التى كانت عليهم نابعا عن معتقدى يقينى بربهم ، أم كان للدوافع السياسية كبير شأن فى اتخاذه جانبهم ؟ وانجذابا الى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك ، واعتلى كل منصة حججه يدفع بأسانيد جمعها عن صدق رأيه ، ويدحض بها قول معترضه . على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقىسؤال سبق توا ذكره ، يدعم اولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين الى حواريى المسيح الاثنى عشر رسولا جديدا ، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين لمحدثين جاعلين من قسطنطين سياسيا حاذقا .

كان يوساب القيسارى أول من زد قائمةالحواريين واحدا . ونسجبقلمه خيوط ضوء قدسى مهيب يزين فى جلال جبين قسطنطين ، سداه احتواء كل فضيلة ، ولحمته ترفع عن أية رذيلة ، تحفظ للبشر على مر الأعصر ، « حياة قسطنطين Vita Constantini .

ولم يكن قسطنطين فى رأى يوساب ومؤرخى الكنيسة ليهتدى الى المسيحية على لسان بشر ، اذن لغدا أحدهم ، ولكنهم جعلوا السماء داعيه فى يقظته ، ويسوع المسيح مبشره فى نومه ، والصليب شارته ، وخدام الرب مشاعل جنده ، والرب يبارك منه الخطى !! كان ذلك فى خريف عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته الى روما « ليخرج من الظلمات الى النور » أناسا طال عليهم الأمد ، وليقضى على « طاغية » بها تجبر ، عندما مالت شمس الظهيرة الى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسى ، واذا بهالة تضىء كبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور « بهذا ستنتصر »

Toutw vikaفعقـدت لســـانه وجيشه الدهشـــة »(١) ، وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى ، وذهبت به الظنون كل مذهب ، وتأخـذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعـلامة التى رآها بيمناه · يأمـره أن يتخـذ اياها له شعارا ، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية(٢) · وأسرع قسطنطين فى اليوم التالى فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة ، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة (٢) لتوضع على رأس كل جندى من جيشه(٤) · وما لبث قسطنطين أن دعا اليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى ، فأعطوه صفته وأنه الرب ، الابن الوحيد المولود من الآب الواحد ، وأن ما رآه هو علامة الخلود ، فوطن قسطنطين نفسه منـذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس ، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين ،ومنى بعراض الآمال نفسه ، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس(٥) ·

بهذه الصورة يسوق يوساب قصة اهتـداء قسطنطين الى المسيحية ، وعلى منواله ينهج مؤرخـو الكنيســـة التـالون وعلى رأســهم سقراط(٦) وسوزومين(٧) ·

ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقا ؟

يذكر يوساب أن قسطنطين وحده لم يكن هو الذى رأى تلك « المعجزة » فى السماء ، بل شاركه الرؤية أفراد جيشه أجمعون ، واعترتهم كلهم الدهشة للذى يرون ، ومعنى ذلك أن تكون هذه الرؤية شيئا شائعا بين الجميع · ولكن يوساب يخبرنا أن قسطنطين نفسه هو الذى قص عليه ذلك صراحة بعد فترة طويلة وفى لحظة من لحظات راحته ، وشفع ذلك بأيمان مغلظة ، ثم يعلق على ذلك قائلا(٥) « فمن ذا الذى يتردد للحظة فى تصديق هذه الرواية ونسبتها اليه خاصة » · ولـكن كثيرين بالفعـل ترددوا فى قبولها ، ويكفينا أن نذكر

---

(١) EVSEB. vita Const. I, 28.

(٢) Ibid I, 29.

(٣) Ibid. 30.

(٤) Ibid. 31.

(٥) Ibid. 32.

منهم كاتبا مسيحيا « يوحنا موسهيم » وكتابه « تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة » الذى قال عنه القس هنرى هس « انه من أعظم الكتب التى وضعت فى تاريخ الكنيسة يمتاز بالحيدة وعدم التعصب »(٦) · يتساءل المؤرخ : « لماذا لم يستند يوساب الا الى شهادة الامبراطور دون ذكر شهادة أحد من الألوف الذين كان ينبغى أن يكونوا قد شاهدوا ذلك ؟ ولماذا لم يقل أن الخبر شاع فى العالم واعتمد على شهادة كثيرين عوضا عن ذكر مجرد شهادة قسطنطين بالانفراد معه ؟ وان كان الله قد قصد انارة عقل قسطنطين ، هل يصدق بأن الله أراه مجرد صورة صليب بدلا من أن يوحى اليه ؟ وهل يصدق أن يسوع المسيح ملك الملوك أمر ذلك الامبراطور بصنع صليب مادى جعل عليه كل اتكاله من أجل النصر ؟ وكيف يمكن أن تكون هذه القصة غير معروفة للعالم المسيحى حتى بعد حدوثها بخمس وعشرين سنة ؟ ولما عرفت كان ذلك عن حديث بين يوساب وقسطنطين · الا يكون الارجح أن يوساب استنتج ذلك من حديث الامبراطور عن هالة براقة ظهرت حول الشمس نهارا وعن حلم مؤثر رآه فى الليلة التالية مما جعله يصنع الصليب المرصع ويستخدمه راية لجيشه(٧) ·

أما جونز فيرى أن قسطنطين قد تخيل هذه الرؤية أخيرا ، ويتأكد ذلك من الطريقة التى يقدم بها يوساب القصة من أن الامبراطور لم ينشر هذه الحادثة بل أفضى له بها فى لحظة من لحظات الألفة والمودة ، ويقول ان ما يحتمل أن يكون قسطنطين قد رآه ليس سوى ظاهرة نادرة لهالة طبيعية مشابهة لقوس قزح نتجت عن سقوط ـ لا المطر ولكن ـ كرات الثلج خلال أشعة الشمس ، وهى عادة تأخذ شكل شموس مصطنعة أو حلقات من الضوء تحيط بالشمس ، وربما تكون الفترة التى تبدى فيها ذلك قصيرة · والعرض غير مكتمل المشاهدة ، ولكنه كان بالنسبة لخيال قسطنطين المكدود المنهك ذا دلالة كبيرة ، فهى الشمس التى يقدسها ، وفى ساعة من ساعات

---

(٦) راجع مقدمة الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة » بقلم القس هنرى هس ·

(٧) موسهيم ، حاشية ١ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ·

احتياجه بعثت اليه الشمس بعلامة ، وكانت العلامة الصليب شعار المسيحيين ، وأيما كانت تعنى ٠٠ المسيح مظهرا للشمس التى لا تقهر ، أو أن الشمس هى رمز القوة الالهية التى اياها يعبد المسيحيون ، فقد كان واضحا أن المسيح ، سيد الصليب ، قد أصبح بالنسبة لقسطنطين بطله وحاميه(٨) ٠ أما ديفز Davis فيشك فى الرواية اطلاقا وان كانت تحمل فى رأيه معانى هامة(٩) ٠

والشىء الذى يدعو للتساؤل حقا أن يوساب قد أورد لنا هذه القصة فى كتابه حياة قسطنطين على لسان الامبراطور نفسه ، ولما كان هذا الكتاب قد وضع بعد وفاة الامبراطور ، فان خمسة وعشرين عاما تفصل بين الحادثة وذكرها ، أما فى تاريخه الكنسى فلم يذكر لنا شيئا ، وكل ما يقوله عن الفترة التى سبقت الحرب بين قسطنطين وماكسنتيوس نصه : « أما قسطنطين الذى كان متقدما فى المقام والمركز الامبراطورى فانه فى بداية الأمر اذ أشفق على من ظلموا روما ، واذ لجأ بالصلاة الى اله السماء وكلمته يسوع المسيح مخلص الجميع كعون له ، تقدم بجيشه ٠٠ »(١٠) ويكاد يكون هذا القول هو نفس ما يذكره يوساب عن ليكين فى صراعه ضد ماكسيمين(١١) ٠ اما لاكتانتيوس فلم يكن ليسكت عن شىء من هذا القبيل لو أن خبرا كهذا ذاع انذاك ، خاصة وأنه كان قد استدعى ليصبح معلما لكريسبوس بن قسطنطين ، وقد عهدناه يخبرنا بما يجرى وراء أستار القصر الامبراطورى فى نيقوميديا ، فلا عليه اذن أن يحدث عما لابد وأن يكون قد شاع وقتها بين العسكر والناس حول هذه الرؤية ، ولكن لاكتانتيوس لا يذكر شيئا البتة عن هالة من نور تحيط بصليب ظهر فى السماء ، بل كل ما يذكره أن قسطنطين أرشد فى حلم رآه الى اتخاذ علامة المسيح شعارا يضعه على دروع جنده ، وان يتقدم به الى المعركة ، فصدع قسطنطين بالأمر(١٢) ٠ وكان ملاك الرب الذى تبدى لقسطنطين فى حلمه هو نفسه الذى زار ليكين فى نومه ولقنه صيغة الصلوات والدعوات التى تضمن له النصر على

---

(٨) Jones, Constantine, p. 96.
(٩) Davis, op. cit. p. 14.
(١٠) EVSEB hist. eccl. IX, 9.
(١١) Ibid. 10.
(١٢) LACT. mort. pers. 44.

خصمه(١٣) · ومن ثم فالمسألة عند لاكتانتيوس لا تعدو حلمـــا رآه كل من قسطنطين وليكين قبل أن يدخل كل منهما الحرب ضد منافسه ، وأن ملاكا للرب جاء اليهما فى نومهما أعطى الأول شارة النصر ولقن الثانى أدعيـــة الانتصار ·

وهكذا نرى يوساب يعطينا روايتين تخالف كل منهما الأخرى ، وكلاهما يختلف ورواية لاكتانتيوس الا فى مســـألة « الحـــلم » فقط . واضطراب الروايات عند هذين الكاتبين ، بل عند يوساب وحده تدعونا الى الشك فى قبول أى منها ·

ولكن ما لنـا نناقش حول قصة يوساب وقد أنبانا فى بداية مؤلفه عن « حياة قسطنطين » أن من العار عليه ألا يحدث عن امبراطور فاق الجميـع فى محبته لله ، « محبوب الرب » ذلك الذى اختارته العنـاية الالهيـة ليقر السلام على الأرض »(١٤) ، ولم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدى الى المسيحية على لســـان قس مسيحى أو مبشر ، والا لما تفرد الامبراطور بشىء عن غيره من ولد آدم ، وانى لاخال يوساب يضع لقادم الأجيال قصة رجل أنقذ من الضياع المسيحية ، يضفى على أفعاله ارادة السماء لا رغبات البشر ، وعناية الرب لا عون الانسان ، وفرق كبير بين أن تعى الأجيال المسيحية أن معتقدها على الارض قد رسخ بيد امبراطور هدته السماء ، وبين ادراكها أنها حيث نتيجة ارادة حاكم جذبته الى صفها ألسن بنى البشر !!

دخل قسطنطين دخول الظافر روما ، فرفعـه الشعب والسناتو الى عليين ، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لالآم المخلص تذكارا ، ونقش على قاعدته « بهذه العقيدة المقتدرة ، رمز الشجاعة الخالصـــة ، أنقذت مدينتكم . ومن نير الطاغية فككت عقالها ، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم الى قديم مجدهم وشرفهم »(١٥) ·

بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحه مع المسيحيين ، ولكنه لم يقف

---

(١٣) Ibid. 47.

(١٤) EVSEB. vita Const. III, 2.

(١٥) EVSEB. hist. eccl. IX, 9; Vita Const. I, 40.

عن حد المسامحة بل ذهب ـ بعد دخوله روما مباشرة ـ الى ما هو أبعد من ذلك، فأظل الكنيسة بوارف رحمته ، وشملها بعطفه ورعايته ، وهذا بين من رسالة بعث بها فى شتاء عام ٣١٢/٣١٣ الى أنوللينوس Anullinus **بروقنصل** أفريقيا ، يقول :

« أنوللينوس ·· عزيزى · تحياتى · نظرا لما كشفت عنه ظروف كثيرة من أنه عندما تزدرى ديانة فيها يكمن أعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة ، يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار ، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر ، تهديهما رحمة الرب اذا ما حظيت بالاحياء والحماية ذات العبادة ، فقد تقرر يا عزيزى أن ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون ، متبعين هذه الديانة الالهية ، تعويضا عن هذه الخدمات ، ويسرنى أن يعفى تماما من أداء الواجبات العامة ، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها كايكليانوس Caecilianus **والمدعوون رجال الدين ، القائمون بخدمة هذه الديانة المقدسة ، المقيمون فى دائرة ولايتك ، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية ، أو يصرفهم دنس ، ولشرائعهم بلا أى عائق يجب أن يكرسوا أنفسهم · فكم من خير تفيده الدولة حالما للاله قدم هؤلاء خالص العبادة · صحبتك السلامة عزيزى المحبوب أنوللينوس(١٦) » ·**

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم فى الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له وبحمده نتيجة لها رجال الكنيسة ، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة ، وكف أيديهم بصورة لبقة عن التدخل فى أمور ولاية تعد آنئذ من أهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية ، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك أن ينصرفوا الى ممارسة شعائرهم رطقوسهم ، ولا يعوقهم عن توقير ربهم

---

(١٦) EVSEB. hist. eccl. X, 7.

عائق ، متطهرين من كل ما قد يعلق بأرواحهم جزاء اشتغالهم بتلك الواجبات العـــامة · ولابد أن قسطنطين كان يدرك مدى الأثر الكبير الذى يمكن أن يتركه رجال الدين المسيحى فى نفوس رعيتهم لتعضيد الحاكم أو التمرد على سطوته ، ومن ثم أراد أن يكتسب الى صفه رجالا ذوى نفوذ كبير فى أنفس الجموع المسيحية ، لمـا يعلمه من أهمية هـذه الفئـة ومدى تأثيرها على مشروعاته القابلة ، وقد أفصح هو نفسه عن ذلك صراحة فى ذات الرسالة حين عتبر المسيحية مسألة حيوية بالنسبة لكيان الامبراطورية ، فقهرهـا واضطهاد اتباعها لم يجر على الدولة سوى الخراب والفوضى ، على حين أفرخ الصفح عنها ضياء الرخاء والاستقرار ، ولا شـك أن قسطنطين كان يقرأ قرطاس الواقع الذى شـــهدته عيناه أيام كان فى القصر الامبراطورى بنيقوميديا زمن دقلديانوس وجاليريوس ، وما ســـمعه عن اضـــطهادات ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، لذا لم يكن عجبا أن يربط قسطنطين بين العطف على المسيحية والأخذ بيد أتباعها ، وبين « الصـــالح العام » للدولة ·

يشبيه بهذه الرسالة تلك التى بعث بها من بعد الى أهالى فلســـطين يمجد فيها الرب ويشيد بالعقيدة المسيحية(١٧) ، ثم يرسم صورة للاضطهادات التى عادت قبل عصره والتى مارسها ضد المسيحية أباطرة ســبقوه ، ثم كيف أدت هذه السياســـة الى هلاك الكثيرين واشـعال نيران العـــداوة والبغضاء بين الجميع(١٨) ، ويوضح الامبراطور بعد ذلك انه مبعوث السماء الى الأرض ، الذى اختاره الرب يبدد دياجير الظلام منذ كان فى بريطانيا ، وليضرب بيد العنف على كل من يقترف الشر ، تؤيده فى ذلك وترعاه يد اله مقتدر(١٩) ·

ولم ينته الأمر عند هـذا الحد ، فاذا كان قسطنطين قد حـرر رجال الاكليرس من عبء صدورهم به ضاقت ، وهيـــأ لهم الفرصـــة الاجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر ، الا أن هؤلاء كانوا يتطلعون فى حسرة الى دور

---

(١٧) EVSEB. vita Const. II, 24.
(١٨) Ibid. 25 - 27.
(١٩) Ibid. 28.

عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد الى أيدى أفراد أخر . ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك لعيون وتطلعاتها ، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا · قال :

« سلاما عزيزى أنوللينوس ·· ان طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى الا أن ترد على الآخرين حقوقهم ، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد الى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن فى حوزة المواطنين أو غيرهم ، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء الى أصحابها · ولما كان فطنتك يدرك مدى وضوح سياق أمرنا فاعد الى الكنائس كل ما كان فى السابق لها ملكا ، حدائق ودورا وأملاكا ، حتى نعلم انك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص · ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس(٢٠) ·

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى . ولكن بقى شىء كان على الامبراطور حتما أن يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها ، ذلك أن يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا ، وهو عطف الدولة عليها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد ، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة فى رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين ، وكان ذلك فى حد ذاته شيئا يبهر أعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا الا بأوامر تهدم كنائسها ، وتصادر أملاكها وتضطهد أفرادها ، فاذا بقسطنطين يحرر الأنفس ، ويعيد الأملاك ، ثم يدعم بالاموال ، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة رأسها متمردة ثائرة ؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الالهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة Carthage رسالة من الامبراطور جاء فيها :

« قسطنطين أوغسطس الى كايكيليانوس أسقف قرطاجة ·· لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقاتهم خدام الكنيسة الكاثوليكية ، لذا سطرت الى أورسوس

---

(٢٠) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

Ursus مأمور الحسابات فى أفريقيا آمره أن يدفع الى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس Folles ... واذا تبين لك أن عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هـــذا الخصوص تجاه الجميع ، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس Heraclides وكيل أملاكنا ، ما أنت اليه فى حاجة ، فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير أى مبلغ يطلب جنابكم(٢١) » .

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعايا المسيحيين ، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة أشد ما يكون حاجة لمثل هـــذا الولاء ، والى أن يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا ، ومن أملاك ليكين قانونا . أما وقد نال الأول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرهـــا تحت سطوة المنتصر وتدخل ضـــمن دائرة نفوذه بمنطق القـــوة والغصب . أما ليكين صـــاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هـــذا المنطق الا أن يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها . ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين أن يقـــدم على مذبح الولاء قربانا . ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة ، قاست صنوف العذاب ألوانا طيلة قرون ثلاثة ، من غيابة الاضطهاد ، ثم رده اليها ما كان لها ، والاغداق عليها من جانب امبراطور كان أســـلافه الذين قذفوا بهـــا فيها . وكان قســـطنطين بارع الدعائية ، فقد احتزت رأس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهاية عصر « الطاغية » فى روما ، وتومىء ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد ، وفى الناحية الأخرى اعفاءات تمنح وهبات .

ويلفت النظر فى رسائل قسطنطين الى أنوللينوس وكايكيليانوس قوله « الكنيسة الجامعة »(٢٢) ، تلك العبارة التى ترددت دوما فى تلك الرسائل ، ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنهـــا تلك « التى يرأسها كايكيليانوس(٢٣) ، وقد دفع قسطنطين الى هـــذا التحديد

---

(٢١) EVSEB. hist. eccl. X, 6.
(٢٢) EVSEB. hist. eccl. X, 5 - 6.
(٢٣) Ibid. 7.

ما يذكره هو نفسه فى رسالته الى أسقف قرطاجة كايكليانوس يقول : « لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعم ودنسها »(٢٤) · وهو يشير ها هنا الى الدوناتيين الذين سنتحدث عنهم فى الفصل التالى · ولنا بالطبع أن نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين الى تخصيص رعايا « الكنيسة المقدسة الجامعة » بالذات دون أتباع دوناتوس ؟

جاء فى رسالة الامبراطور السالفة الى أسقف قرطاجة : « متى تسلمت المبلغ المشار اليه ، فانى أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه وفقا للقائمة التى بعث اليك بها هوسيوس Hosius »(٢٥) ونعلم من سقراط(٢٦) أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة ، وأنه كان عندئذ مستشار قسطنطين للشئون الدينية ، ومجىء أسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية(٢٧) · ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الامبراطور الى جانب المسيحيين بداءة(٢٨) · ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين ، متحركا نشطا فى الاحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة فى مسألة الصراع الآريوسى ، وسيظل كذلك الى أن يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الامبراطور قسطنطيوس من بعد ·

ولا أظن شيئا من المغالاة يصاحب قولنا أن قسطنطين وقد فتح على نفسه باب عقيدة جديدة ، كان فى حاجة الى من يهدى الخطى منه فى دروب هذا الدين الجديد · حقيقة لقد رسم لنفسه طريق هدايته بضياء من عل ، أما التفاصيل الأخرى الخاصة باتباع الدين الجديد فلا ضير أن يتلقاها من البشر فهم بها أعلم · وكما أن بلاطه وجيشه ودواوين حكومته كانت تعج بالوثنيين والى جواره منهم المستشارون ، فلابد أن يكون الى جانبه بضع

---

(٢٤) Ibid. 6.
(٢٥) EVSEB. hist. eccl. X. 6.
(٢٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.
(٢٧) Jones, Constantine, p. 82.
(٢٨) Burkhardt, op. cit. p. 301.

أناس من ذوى المكانة بين أصحاب هذه العقيدة الجديدة ، وهذا هو ما يخبرنا به يوساب نفسه(٢٩) وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا الى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة ، وبالتالى كان أسقفها ، اذا ما قوزنت بروما والبابا ، ولما كان قسطنطين يكره أن يكون لأحد ما أى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه ، ويخشى اذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين ، كان « هوسيوس » المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع ، ودليلنا على ذلك أنه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة ومركز ممتاز ، لكنه أغفل أساقفتها ، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما ، وظل مبقيا على هوسيوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له لفترة طويلة من عهده ، وكان أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الامبراطور على الكنيسة الكاثوليكية فقط دون أتباع دوناتوس ٠

لم يمكث قسطنطين فى روما بعد انتصاره على خصمه ، الا عدة أشهر ، ثم شخص فى مارس ٣١٣ الى ميلانو حيث وافاه ليكين هناك ، ويقول جاكسون ان اختيار قسطنطين لميلانو بالذات مكانا للقائه مع ليكين يرجع الى رغبته فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الوثنية وادعاءات رجال السناتو(٣٠)، ولم يشغل صخب وضجيج احتفالات الزواج التى شهدتها المدينة الامبراطورين عن عقد اجتماعات انتهت الى تقرير سياسة معينة اتفق الطرفان على التزامها ، وكان من بين الموضوعات التى تناولتها المحادثات بين الزعيمين ، مسألة معاملة الرعايا المسيحيين فى الامبراطورية ، وتعهدا بمنح الحرية الدينية لكل سكان الامبراطورية شريطة ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة ٠ ولم تصلنا سجلات تلك الاجتماعات ، ولكن هذه النية حفظتها لنا رسالة بعث بها ليكين الى نائبه فى نيقوميديا بعد

---

(٢٩) EVSEB. vita Const. I, 32.

(٣٠) F. Jackson, op. cit., p. 283.

انتصاره على ماكسيمين(٣١) ، تضمنت السياسة التى رأى الطرفان اتباعها فيما يختص بالمشكلة الدينية ، ولهذا شاع بين المؤرخين خطأ تسمية هذه الرسالة « بمرسوم ميلانو » ، والحقيقة أنها ليست بيانا رسميا صدر عقب انتهاء المحادثات بين قسطنطين وليكين ، ولكنها رسالة أذاعها النائب الامبراطورى فى نيقوميديا بعد أن جاءته من سيد الشرق الجديد ، وأحد قطبى ميلانو ، وقد حفظ لاكتانتيوس نص الرسالة ، وأورد يوساب ترجمة يونانية لها(٣٢) . وقد ظهرت هذه النظرية أولا ، وهى أن مرسوما لم يصدر البتة من ميلانو ، على يد العالم الالمانى O. Seeck سنة ١٨٩١(٣٣) . على أية حال فقد كانت رسالة ليكين هذه تعبيرا عما استقر عليه الطرفان فى ميلانو سنة ٣١٣ . وقد جاء فيها :

« لما كنا قد أدركنا منذ عهد أن أحدا يجب أن لا يحرم من حريته العقائدية بل يحق أن تترك لارادته وفطنته حرية اختيار مقدساته الدينية ، فقد أصدرنا قبلا أوامرنا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشعائرهم ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود ، بعد صدور ذلك المرسوم الذى به حصل المسيحيون على حريتهم » .

والاشارة هنا الى مرسوم صدر قبل اجتماع ميلانو ، ولكنا لا نعلم شيئا من هذا القبيل ، وأغلب الظن أن المرسوم المشار اليه هنا هو ذلك الذى صدر سنة ٣١١ باسم الأباطرة الثلاثة ، وهو المرسوم الذى لم تتح له الفرصة ليوضع موضع التنفيذ نتيجة لصراع العنيف الذى شب عقب وفاة جاليريوس .

وتمضى الرسالة قائلة :

« وعندما اقبنا ميلانو ، وتأملنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع ، اعتزمنا ابتداء أن نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس ، وفـ

---

(٣١) LACT. mort. pers. 48.
(٣٢) EVSEB. hist. ecel. X, 5.
(٣٣) Vasiliev, op. cit., 1, p. 51.

سبيل ذلك يمنح المسيحيون وسائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم ، وأن لا يحرم أى انسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه حتى يتفضل علينا الرب بجميل نعمائه » ٠

على هذا النحو بدأت الرسالة باطـلاق حرية العقيـدة لكل رعايا الامبراطورية بلا تمييز ، وأقرت حق الفرد فى الايمـان بما يتفق وقلبـه ، ويتأكد هذا المعنى بصورة أكثر وضوحا فى النص الذى يقول : « ان السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى اله يريد ، دافعنا الى ذلك أن لا يتوهمن انسان أنا لأى من الديانات أسأنا » ٠ وجـاء فى الرسـالة أيضـا : « ٠٠ وكل من يهوى اتباع ديانة المسيحيين فله ذلك دون ما مانع ٠٠ لقد منحنا المسيحيين فى ممارسة شـعائر ديانتهم كامل الحرية » ٠

بهذا الاعتراف الحكومى غـدت المسيحية والديانات الأخرى داخـل الامبراطورية على قدم المساواة ، وأضحت دينا شرعيا شـأن قريناتها(٣٤) وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية ، وساد الكنيسة سلام طالما اليه تاقت ، وقد هللت الكنيسة لهـذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ ، ولا أدل على ذلك مما عبر به يوساب عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله :

« أخيرا ٠٠ أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام ، وبأشـعة نور سماوى أضاء فى العالم كنائس المسيح ، وحتى أولئك الذين ليسـوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات ، أو على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى أغدقها الرب علينا(٣٥) » ٠

وفى هذا القول الأخير اشارة الى أن الحرية الدينية لم تكن قاصرة على المسيحيين فحسب بل تمتع بها كل فرد فى الامبراطورية ، وهو ما ورد فى صدر رسالة ليكين :

---

(٣٤) Cochrane, Christianity and classical culture, p. 178.

(٣٥) EVSEB. hist. eccl. X, 1.

« وأخيرا فقد رد على المسيحيين ما كان منهم قد أخذ : فاذا حدث أن أماكن المسيحيين التى درجوا على الاجتماع بهـا ·· قد اشـترتها خزانتنا أو أشخاص آخرون ، وجب ردها الى المسيحيين على الفور دون عوض ، وحتى أولئك الذين حازوا مثل هذه الأماكن هبة أو هدية ، عليهم تسليمها لأصحابها، بلا تردد أو تأخيـر ، وليذهبوا الى نائبنـا ان شـاءوا لينـالوا من عطائنا ما يرضيهم ، ولما كان معلوما أن هؤلاء المسيحيين لم يتملكوا مجرد هـذه الأماكن ، بل أماكن أخرى تعتبر من أملاكهم كجماعة ، وجب ردها أيضا دون ابطـاء » ·

تلك أهـم النقـاط التى من حولهـا دار البحث بين الامبراطورين فى ميلانو ، وعليها قر رأيهما ، وحملتها الينا رسالة نيقوميديا ، على أن الشىء الذى يجب أن تعيه ذاكرتنا أن اتفاق ميلانو لم يكن أول اتفاق من نوعه على جعل الديانة المسيحية شرعية فى الامبراطورية ، بل سبقه الى ذلك مرسوم سنة ٣١١ ، حتى يجوز لنا القول ان ما جاءت به رسالة ليكين ليس الا تأكيدا لمرسوم جاليريوس ورفيقيه · فهذا الأخير قد تضـمن الصفح والعفو عن المسيحيين الذين ناوءوا الحكومة متمسكين بعقيدتهم وسـمح لهم باقامة الشعائر ، وأباح لهم اعادة بناء وتعمير دور اجتماعاتهم وعبادتهم(٣٦) ، ولم تزد رسالة نيقوميديا عن ذلك شيئا اللهم الا النص على اطلاق الحرية الدينية لكل الأفراد ، وذلك شىء لم يكن مرسوم سنة ٣١١ فى حاجة الى توضيحه · لأن هذه الحرية يتمتع بها فعلا أتباع الديانات الأخرى ، ولم يكن منها محـروما الا المسيحيون · ولذلك منحهم المرسـوم اياها ، والا تكفـل الدولة بأن تدفع تعويضا للافراد الذين سيتخلون عما أخـذوه آنفـا من الكنيسة ، أما فيما عـدا ذلك فليس اتفاق ميلانو الا اقرار لمـا سبق اليه مرسـوم جاليريوس الذى لم يدخل قط دائرة التنفيذ ، وذلك شىء تعترف به منذ البداية الرسالة التى بين أيدينا ، حيث تذكر على لسان الامبراطورين : « فقد أصدرنا أوامرنا قبلا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشرائعهم ، ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لمـا تعرضت له هـذه

---

(٣٦) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

الحرية من قيود عدة بعد صدور ذلك المرسوم الذى حصل به المسيحيون على هذه الحرية » · وحتى ذلك الذى تم عليه الاتفاق فى ميلانو لم يؤخذ هو الآخر مأخذ الجد ، فقد رأينا ليكين يعود من جديد لاضطهاد المسيحيين ·

خلاصة القول انه ليس هنـاك حتى الآن ما يسمى بمرسوم ميلانو ، وكل ما لدينا رسالة تلقاها نائب الامبراطور فى نيقوميديا من سيد الشرق الجديد ليكين تفصح لنا عما دار بين الامبراطورين فى ميلانو · المهم أن هذه الرسالة أفصحت فى جلاء عن البواعث التى دفعت الزعيمين الى انتهاج تلك السياسة قبالة المسيحيين ، فقد جاء فيها : « ان السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبـادة أى اله يريد » ، واختتمت الرسـالة على النحو التالى فى صيغة الأمر للنائب الامبراطورى : « لكى يعم الهدوء ويسود السلام ، أبذلوا كل جهدكم لاتمام أوامرنا بسرعة لأننا بهذا السبيل نضمن دوام رحمة الرب ، وذلك أمر فى كثير من الأمور وعيناه » ·

وبشىء من التحديد يمكن القول ان « سلام » الامبراطورية و « وحدتها » و « صالحها العام » كان دافع قطبى ميلانو للمبادرة باختطاط هذه السياسة ، وهذا المعنى ورد فى رسائل قسطنطين العديدة التى بعث بها الى شـمال أفريقيا فى ذلك الحين · وتلك التى كتبها بعـد أن غـدا امبراطورا على الامبراطورية فردا · ولكنا نقنع الآن بما جاء فى رسـالته الى أنوللينوس والتى سبق الحديث عنها ، وفيها يذكر قسطنطين الضرار التى يمكن أن تتعرض لها الامبراطورية بمهاجمة هذه الديانة وأتباعها ، ومدى ما يمكن أن تفيده الدولة اذا ما وقرت المسيحية ·

كان يوساب وفيا بعهده الذى قطعه على نفسه منذ البداية بأن يحدث عن فضائل قسطنطين وأياديه البيضاء التى قدمها للكنيسة طيلة فترة حكمة ، فذكر أن الامبراطور قرر عودة المسيحيين الذين نفتهم السلطات الحـكومية قبلا الى جزر نائية أو مناطق جبلية موحشـة(٣٧) ، وعفا عن أولئك الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم أو سخروا فى الأعمال العامة(٣٨) ، وحرر

---

(٣٧) EVSEB. vita Const. II, 30 - 31.

(٣٨) Ibid. 32.

هؤلاء الذين كانوا ينتمون الى المجتمع الراقى ثم أنزلوا الى مرتبة العبودية وأجبروا على الخدمة فى المنازل(٣٩) ، وسمح للجنود أو الضباط الذين حرموا من رتبهم العسكرية اما بالعودة الى مناصبهم مرة أخرى واما بالعيش الهادىء بعد أن يرد اعتبارهم(٤٠) ، وأمر بأن تعاد مقابر الشهداء الى ملكية الكنيسة وأن تصبح تحت ادارتها(٤١) ، وأن تعود املاكهم المصادرة الى أقرب أقربائهم فان لم يكن لهم ورثتهم الكنيسة(٤٢) ، وأباح لهذه الحصول على الهبـــات والتبرعات التى يقدمها المواطنون(٤٣) ، ورد الى الذين انتزعت منهم بسبب عقيدتهم أملاكهم من الأراضى والحدائق والدور(٤٤) حتى ولو كانت هـذه قد أصبحت فى حـــوزة الخزانة الامبراطورية(٤٥) ، وعلى الذين ابتاعوا ممتلكات تخص الكنيسة أو تسلموها هبة المبادرة التى تسليمها ثانية(٤٦) ، وفتح أمام المسيحيين باب الوظائف الحكومية وسلم الترقى فيها(٤٧) ومنح المحاكم الأسقفية امتيازات هائلة حيث أصبح من حق أى فرد ، باتفاق طرفى الخصومة ، رفع دعـوى مدنية لدى المحـاكم الأسقفية حتى ولو كان قد تم السير فى اجراءات تلك الدعوى أمام المحكمة المدنية ، وعلى مشارف نهاية حكم قسطنطين وسع اختصاصات المحاكم الأسقفية حيث عد حكم الأسقف نهائيا فى مختلف الدعاوى ، وغدا فى الامكان احالة أية دعوى مدنية الى المحكمة الأســـقفية فى أى مرحلة من اجراءاتها حتى ولو لم يقبل أحـــد الخصوم ، وأوجب تصديق القضاة المدنيين على أحكام المحاكم الأسقفية ، وبذا زادت سلطات الأساقفة فى لمجتمع(٤٨) ، وبعث قسطنطين الى عماله فى مختلف الاقاليم يوجههم الى المساعدة فى اقامة الكنائس ، وأن لا يبخلوا

---

(٣٩) Ibid. 34.

(٤٠) Ibid. 33.

(٤١) Ibid. 40.

(٤٢) Ibid. 35.

(٤٣) Ibid. 36.

(٤٤) EVSEB. vita Const. 37.

(٤٥) Ibid. 39.

(٤٦) Ibid. 41.

(٤٧) Ibid 44; SOCRAT. hist. eccl. I, 18; SOZOM. hist. eccl. I, 8.

(٤٨) Vasiliev, op. cit. I, p. 53.

بشيء من سبيل ذلك حتى من الخزانة الامبراطورية ذاتها ، وأرسل الى الأساقفة أيضا رسائل تتضمن هذا المعنى ، وكان يوسباب بالطبع من بين هؤلاء الاساقفة ، ويذكر أنها كانت أول رسالة تلقاها من الامبراطور(٤٩) ، وتضمنت - وهى على غرار رسائله الأخرى الى باقى الأساقفة - حديثا عن نهاية العهد الذى كانت فيه الكنائس عرضة للتدمير والتخريب ، أما الآن وقد أظل الامبراطورية من السلام عهد جديد فلهم أن يقوموا باصلاح ما عطب من دور العبادة هذه ، وانشاء كنائس أخرى جديدة ، واذا ما أعوزتهم للنقود لحاجة فما عليهم الا أن يلجأوا الى حاكم الولاية التى تقع فيها دائرتهم(٥٠) .

ويضيف يوسباب ان الامبراطور خط بيمينه رسالة الى سكان الامبراطورية جمعاء يدين فيها الوثنية ويمجد المسيحية(٥١) ، أورد فيها تقريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله ، وبدأها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة ، وقارن بين ورع والده وتقواه وعطفه على المسيحيين ، وخبث دقلديانوس وماكسيميان واضطهادهما لهم ، ويعدد قسطنطين صنوف المخاطر وألوان التعذيب الذى تعرضت له هذه الجماعة على أيدى تلك الطغمة الآثمة ، ويذكر - والعار يملأ حديثه - كيف كانت معاملة البرابرة لأولئك المسيحيين الهاربين حسنة رقيقة ، فى الوقت الذى لقوا فيه الاضطهاد من العالم الرومانى المتمدين ، ويعود الامبراطور ليؤكد من جديد الانتقام الالهى الذى لحق بهؤلاء المضطهدين جزاء ما قدمت أيديهم ، ثم لا يبث أن يذكر ما فعله هو من أجل تمجيد الرب واعلاء شارة الصليب ، وكيف أنه كان يصلى دائما من أجل الكنيسة والجموع ، بل لقد كانت صلاته دعاء الى الرب أن يهدى الى المسيحية العالم أجمع ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجبر أحدا على ذلك ، فلما نظر الرب الى هذه الفعال من جانب الامبراطور أنعم عليه بهذه الحكومة العالمية ، ويختتم رسالته بتحذير يعظ به الجميع حاثا إياهم على العيش فى سلام والاخلاد الى الهدوء(٥٢) .

---

(٤٩) EVSEB. vita Const. II, 45.

(٥٠) Ibid. 46; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

(٥١) EVSEB. vita Const. II, 47.

(٥٢) EVSEB. vita Const. II, 48 - 60.

هكذا ٠٠ وعلى قيثارة « المن » راح قسطنطين يعزف للكنيسة لحن « الخيرات » التى أغرقها فى أنغامها ، ويردد على مسامع جمهورها دائما تلك المقطوعة التى لم يمل منها وجيز برهة ، وأرهفت الكنيسة أذنيها لتسمع ، فقد كان لابد لها أن تسمع بل وأن تعى من اللحن كل نغمة ، ولم يفت الامبراطور أن يذكر دوما فى أنشودته أنه مبعوث الرب ، وأن الاله الأعلى هو الذى فى البدء هداه ، وها هو ذا يسدد خطاه ٠٠ فما على الكنيسة اذن الا أن تسبح بحمد هذه الرحمة الالهية ، ولها تدعو واياها توفر !!

وكأنى بقسطنطين يريد أن يضع أمام أعين رجالات الكنيسة صورة لمدى عون الرب له بمنحه هذه « الحكومة العالمية » التى يحدث عنها ، والتى لم تكن لتشمل الرومان وحدهم ، بل تخضع البرابرة أيضا ٠ ففى رسالة بعث بها الى مجمع الأساقفة المنعقد فى صور سنة ٣٣٥ يقول قسطنطين :

« بفضل جهدى ، ولأتى لله نعم الخادم ، آمن البرابرة بعبادة الرب ، وما ذلك الا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحاميى فى كل خطو ودرب ٠ ولأنهم من خشيتنا أدخلوا الى المعرفة الحقة للاله الذى هم الآن بعبادته قائمون(٥٣) » ٠

وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب الى ملك فارس رسالة(٥٤) يردد فى صدرها من جديد أنغام فضله على المسيحيين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها ، فيفتتحها قائلا :

« انى كما تيرهن أعمالى أعترف بأقدس عقيدة ، فهذه العبادة ذاتها تقودنى الى معرفة الرب القدوس ، الذى بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصى المحيط ، كل أمة فى هذا العالم لتلمح الأمل فى الأمان ، وعليه فان كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة ، قد بعثوا من جديد بفضل حكمى وارسائى قواعد أسعد دولة » ٠

ولا يختلف هذا المعنى ـ كما نرى ـ عن سابقه ، وتلك على التتابع

(٥٣ SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(٥٤ EVSEB. vita Const. IV 9 - -3.

كانت عادة قسطنطين · فما من رسالة كتبها أو أمر بها الا وفيها لأنشودة فضل حكمه على المسيحيين مقام معلوم ، والمقصد من هذا كله بين جلى ·

وأذا كان قسطنطين قد ســـاق بالقوة البرابرة – كما يدعى – الى حظيرة المسيحية ، فنال بذلك تهليل الكنيسة واستحسانها ، فلا أقل من أن يستحث ملك فارس على رفع الظلم عن كواهل رعاياه المسيحيين ، فدعاه فى رسالته الى معاملتهم معاملة طيبة وأن يشملهم بعطفه ورعايته ، حتى ينال بذلك رضا ربهم وجميل نعمائه ، فيقول الامبراطور :

« انى لأضرع أن يحل عليك الرخاء واياهم ،وأن تشملكما على قدر واحد البركات ، فبهذا السبيل سوف تعاين حب الله وعطفه ، الرب أب الجميع والسيد · والآن · وأنت صاحب السلطان أوصيك بهم خيرا ، فلتسعهم رحمتك ولتكلأهم رعايتك ، فتقواك للعيان بادية ،ولتبسط عليهم جميل فضلك وعطفك، فانك بهذا السبيل تضمن لك ولنا عظيم النعم » ·

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معانى أخرى :

« هذا الرب ·· وأنا على ركبتى جاث ، اياه اســـتعيذ من هول دماء تلك الأضـــحيات ، واليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتـــة ، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية ، وما ذلك الا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشـعائرها المستهجنة ، قد أوردت جل لا بل كل أمم العـــالم الوثنى ورد الهـــلاك · فرب الكل السيد ، وهبها البركات ، ومن ثم لا يرضى جـــلاله ولا يسمح لفئة تعبث بها وتنحرف ارضـــاء لخاص الشهوات · وليس للرب على الانسان الا نقاوة عقل ، واستقامة روح ، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها ، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال · يحب الحليم ويبغض اللئيم ·· يبتهج للايمان ومن الكفر يقتص · يهوى بجبروته كل عات، ومن صلف كل متكبر ينتقم · وفى الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس ، ولكنه يجزى المتضع ، وبما استحق من جزاء يثيب ، وبمثل هذا يمد الرب

عونه لملكة بالعدل قائمة ، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام ... وبعد يا أخى .. فانا على يقين بأنى غير مخطىء فى اعترافى بهذا الاله الواحد . المبدع ، الآب لكل الاشياء ، الذى جافاه كثير من أسلافى ، مقودين بجنون الخطيئة ، مما جر عليهم رادع العقاب حتى راح ما تلاهم من أجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعبه الرغبة فى سلوك الدرب ، ومن عداد هؤلاء واحد حدت به صاعقة العذاب الهون ، فراح من هنا طريدا ، وكانت أراضيكم له المنفى والمصير . وكان العار الذى لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم(٥٥) وانها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذى حل بكل أولئك ـ على النحو الذى أوضحت ـ بينا للجميع فى عصرنا . ذلك أنى قد عاينت نهاية أولئك الذين ، بكافر مراسيمهم ، ناكدوا عباد الرب . وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله . فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام . وعليه فانى لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الأمن . فاذا ما اتقى الناس وأمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا ، يقدسون ذاته ، تعطف الرب فآواهم الى رحابه » .

بهذا الترديد فى رسالته يقدم قسطنطين لشىء واحد يريد قوله منذ البدء ، ذلك هو حث سابور الثانى Sapor II على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد ، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة ، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية ايمان يعظ أمام المذبح جموعا !! .

لقد كان فى مقدور الامبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى انصاف عباد الاله الواحد بداءة وينتهى . ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته ، واذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الامبراطور لرأيناه عمد الى ذلك قصدا مقصودا . فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الاله الواحد

---

(٥٥) يشير قسطنطين هنا الى ما كان من أمر هزيمة الامبراطور الرومانى فاليريان (٢٥٧ ـ ٢٦٠) على يد الفرس وأسره . راجع ص ٤٠ .

الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من أنه بعبادته قائم ، ولا يرتاب فى أن ما امتلأبه رسالته من ابتهـــالات لهـذا الرب وضراعة لاتعنى البتـة شيئا لدى هذا الملك الثنوى ، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد · رغم علمه بكل ذلك ، الا أنه ذكره مقرنا اياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وأذوا ناسها ، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصـــوير غضب سيد الجميع · وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر ، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى ·وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لمـا يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى ، طالما أنه لا يؤمن بالواحد ، وطالما كان يضطهد عباده · أما قسطنطين فالرب على الدوام آخذ بيده ، ويبارك خطاه ، وينصره على أعدائه أعداء الرب ، لأنه يسك سبل دينه ، ويهتدى بنور شـرعه · والا فبماذا نعلل كل هـــذا السياق اذا لم يكن قسطنطين قد قصد الى ذلك فعلا ؟ ·

شىء آخر لا نظنه من الحقيقة ببعيد ، فقسطنطين يريد أن يضيف الى مآثره على الكنيسة فضـلا جديدا بأن يجعل من نفسه للايمان داعية ، وأن يظهر بصورة حامى ذمار هذا الدين فى داخل دولته وعبر أسوارها ،وعند عدو للرومان لدود وكأنه يريد بذلك أن يدخل فى روع الكنيسة حرصه على ضم بيعة جديدة اليها ، فيمتد بذلك نفوذها الى جهـة كانت توقن أنها عن أيديها بعيدة المنال ·

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعـــل عنيفا فى الأوساط الفارسية ، وساورت الشكوك الملك الفـارسى فى نيات امبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا اياهم صنائع عدوه(٥٦) وربما يعود ذلك لما نمى الى علم الامبراطور من خاصتـه بأن كل المسيحيين فى مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية ، وأن سمعان أسقف سلوقيـــة Seleucia يرسل الى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث فى فارس(٥٧) · ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء فى رسالة قسطنطين سالفـة الذكر الى

---

(٥٦) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٥٧) موسهيم : تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ١٣٥ ·

سابور حيث يقـول : « انه لفى روعى والسرور يملأنى ، بعد أن أتتنى أنباء سارة تتناغم ورغبتنا ، أن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث اليكم الآن ٠٠ أعنى المسيحيين »(٥٨) ٠ ويرجع هذا لارتياب فى نفس سابور الى وقت طويل عندما تسلم زمام السلطة فى المملكة ، فهاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة فى بابل وسلوقية وجنديسابور وآشور وغيرها(٥٩) فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات فى سنوات ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما(٦٠) ٠ وعقد فى سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسى أقر فيه نصـ رسميا نهائيا لكتاب الأفستا(٦١) ٠

ومما زاد فى ارتياب الملك الفارسى أن تيريداتس الثالث Tiridates III (٢٦١ ـ ٣١٧) ملك أرمينيا ، الذى أعاده دقلديانوس الى عرشه ، قد تحول فى مطلع القرن الرابع الى المسيحية ، وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته(٦٢) ٠ مما أدى بالتالى الى حـدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين(٦٣) ، ومن ثم لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى واحياء التحالف القديم ثانية(٦٤) ٠ ولا شك أن ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته ٠ وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى الى القبض على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى واحتـلال بلاده ، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة ، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان Hannibalianus ملكا ،وكان هـذا بالطبع يعنى الحـرب مع فارس ، ولم يؤخـر انفجـارها الا مـوت

---

(٥٨) EVSEB. vita Const. IV, 9 - 13.

(٥٩) أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٧٥ ٠

(٦٠) موسهيم : تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ١٣٥ ٠

(٦١) أسد رستم : المصدر السابق ، ص ٧٥ ٠

(٦٢) Jones. Later Roman Empire, I, p. 85.

(٦٣) Cary, op. cit. p. 732.

(٦٤) Jones. Later Roman Empire, I, p. 85.

قسطنطين(٦٥) ٠

لـذا لا نستبعد أن يكون قسطنطين فى رسالته الى ملك فارس يتحرش به ويستفزه ، ليدخل معه فى جولة من جولات الصـــراع يجرب فيها للمرة الثالثة قوة ذلك الاله الذى خبره قبل ذلك على ضفاف التيبر وتحت أسوار خريسوبوليس ٠ ولكن قدره لم يسعفه ، فترك لخلفـه مهمة اتمام هـــذه التجـربة ٠

له يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حـد الدعم المـــادى بصوره المختلفة ، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة ، بل تخطاه الى حيز الواقع العملى ، أعنى اقامة دور العبـادة ، فينبئنا يوسـاب أن الامبراطور بعد ارفصاض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات ، وكان هـذا العمل هو انشاء كنيسة فى الموضع الذى « قام فيه المسيح ثانيـــة من بين الأموات » ، ويقـول مؤرخنـــا ان قسطنطين لم يكن يصدر فى عمله هـــذا عن تفكيره المحض بل كان يتحرك بروح من المخلص نفسه(٦٦) ،وقد أمر الامبراطور بازالة القمامة والمخلفات التى كانت تغطى ذلك المكان(٦٧) ، وذهب الى أبعـد من ذلك وأمر أن تحفر الأرض الى عمق معين حتى تتطهر من كل رجس يكون قد علق بها من جراء الدنس لذى أقدم عليه أعداء الرب(٦٨) ، وكانت مفاجأة للجميع عندما عثر اثناء الحفر على القبر المقدس(٦٩) ، وقـــد أردف قسطنطين ذلك برسالة بعث بها الى حكام الولايات الشرقية يأمرهم فيها أن يقدموا الأموال لاتمام بناء الكنيسة عند القبر المقدس ، وأن لا يبخلوا فى هـــذا المقصد بشىء ، وحملت نفس المعنى رسالته الى مكاريوس Macarius أسقف أورشليم(٧٠) ، وأوضحت مدى اهتمام الامبراطور واحترامه وسعيه الدائب لاتمام هذا العمل

---

(٦٥) Id.
(٦٦) EVSEB. vita Const. III, 25.
(٦٧) Ibid. 26.
(٦٨) Ibid. 27.
(٦٩) Ibid. 28.
(٧٠) Ibid. 29.

بصورة تليق بالمخلص(٧١) ، واقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها(٧٢) · ويضيف يوساب أن الامبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة(٧٣) · وقام الامبراطور أيضا بانشاء كنيستين أخريتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون(٧٤) وزارت هيلينا Helena أم الامبراطور ، الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام ، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين(٧٥) · وحظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين ، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية(٧٦) · ويذكر يوساب أيضا أن الامبراطور قام فى سنى حكمه الأخيرة بانشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية ، ويعطينا وصفا دقيقيا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها(٧٧) ·

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الوثنية ، مثل معبد أسكليبيوس Asclepius فى ايجى بكيليكيا Aegae (Cilicia) ومعبدى Apheca و Hiliopolis فى فينيقيا Uhoenicia واقتلع أبوابها وأسقط أسقفها وامتدت يداه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة(٧٨) ·ويعلق جونز على ذلك بقوله ان قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد فى اصلاحه النقدى(٧٩) · ويرجح أيضا أن يكون قسطنطين قد صادر ضياع هذه المعابد(٨٠) ، ويذكر يوساب أن هذه الاجراءات التى أقدم عليها الامبراطور أطاحت بهيبة الأرباب القديمة ، وأضحت مثارا للسخرية ، وقد ظهر عجزها فى دفع الأذى عن

---

(٧١) Ibid. 30; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(٧٢) EVSEB. vita Const. III, 31.
(٧٣) EVSEB. vita Const. III, 40.
(٧٤) Ibid. 41.
(٧٥) Ibid. 42, 43; SOCRAT. hist. eccl. I, 17.
(٧٦) EVSEB. vita Const. III, 50; SOCRAT. hist. eccl. I, 18.
(٧٧) EVSEB. vita Const. IV, 58 - 59.
(٧٨) EVSEB. vita Const. III, 54, 56, 58.
(٧٩) Jones, Later Roman Empire, I, p. 92.
(٨٠) Id.

نفسها ، وكان ذلك داعيـــة لهجر كثير من الوثنيين ديانتهم وتحولهم الى المسيحية(٨١) ٠

بهذا كله غـدا قسطنطين فى نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولا ، تخيرته السماء ليمجـد الرب فى الأعالى ، وليحل على الأرض الســـلام ، وليعيد للكنيسة عهدا من الأمان حرمت منه منذ ولدت ، ولتنتشر بفيض رحمة الرب تعاليم المخلص وهديه ، وقـــد عبر قسطنطين عن ذلك أحسن تعبير فى تلك الرسالة التى بعث بها الى فلسطين حيث يقول :

« لقد كنت عـدة الرب التى اختارها ، وقدر صلاحها لانفاذ مشيئته ٠ وعليه فانه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، تستتر الشمس فيها بالأفق ، وبمدد الهى ، اقصيت تماما وازلت كل صنوف للشر سادت ، آملا ، وأداتيتى للرب تنير خطوى ، أن يرعى البشر ناموس الاله المقدس ، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوى(٨٢) » ٠

وبعد أن يعترف قسطنطين بفضائل الاله عليه ، واعتبـــار كل خدمة توكل اليه من عند الرب هبة ، يضيف قائلا :

« ها أنذا الى اقاليم الشرق اسعى . حيث أمست تحت نير الكوارث الجسام تتحرق لطباب شاف على يدى(٨٣) » ٠

وبعد ٠٠ فقد يبدو غريبا أن يظهر قسطنطين تعاطفه بهـــذه الصورة مع المسيحيين وهو يعلم يقينا أن المسيحيين يمثلون قلة فى الامبراطورية ، بل وفـوق ذلك قلة مضطهدة ، وهى لا تتجـاوز فى تعـــدادها خمس ســكان الامبراطورة ٠ وكان أغلبهم ينتمى الى الطبقـات الشعبية التى كانت على أقل تقدير تمثـل سياسيا واجتماعيا الطبقات المتوسطة والأدنى فى المدن ، وكان السناتو الرومانى كله تقريبا ، وهـو معقل الارستقراطية الرومانية ،

---

(٨١) EVSEB. vita Const. III, 57.
(٨٢) EVSEB. vita Const. II, 28.
(٨٣) Ibid. 29.

وثنيا ، كما كان كبـار الموظفين · وأهم من هـــذا جميعا كان جـل الجيش ضباطا وجنودا يدينون بالوثنية(٨٤) · فهل كان قسطنطين فى انجـــذابه للمسيحيين يصدر عن ايمان حقيقى بأنه المسيحية ؟ أم أن ذلك سلوك فرضته الظروف واقتضته طبيعة الأحداث آنئذ ؟

لم يكن قسطنطين على قدر كبير من الثقافة(٨٥) ، وكان بمولده ونشأته الأولى وثنيا(٨٦) ، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها ، فوالده يحملان نفس العقيدة ، وان كان أبوه قد لجأ الى صورة من صور التوحيد الوثنى حيث كان من عباد اله الشمس(٨٧) ، أما هيلينا فيبدو أنهـــا لم تعرف المسيحية قبل وليدها(٨٨) · وقد بقى قسطنطين مع أمه فى Drepanum ـ (مدينة على الساحل الغربى لصقلية وتسمى الآن Trapani) موطنها الأصلى الى أن غدا والده قسطنطيوس سنة ٢٩٣ قيصـــرا وطلق هيلينا(٨٩) ليتزوج من ربيبة ماكسيميان تيودورا(٩٠) · فأخـذ قسطنطين الى نيقـوميديا ليقيم فى القصر الامبراطورى هناك بحجة تثقيفه وتهذيبه ، ولكن الحقيقـــة أنه كان رهينة لدى دقلديانوس حتى يضمن حسن سيرة قيصر الغرب(٩١) · ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فيمـا أورده لاكتانتيوس(٩٢) عن ذلك الالحـاح المستمر الذى أبداه قسطنطيوس للسماح لولده باللحاق به عقب وفاة دقلديانوس ، وما كان من رفض جاليريوس وعنته ·

ولمـا كان البـــلاط النيقوميدى يســـوده المعتقـــد الوثنى ، وليس للمسيحية فيه الا بضع موظفين ، لم تتح بالتالى الفرصة لقسطنطين ليعرف المسيحية عن كثب ، وزاد فى ذلك أيضا اشتراكه فى عدة حملات كان أشهرها

---

(٨٤) Jones, Constantine, pp. 79 - 80.
(٨٥) Cantor, op. cit. p. 46.
(٨٦) Boak, op. cit., p. 432.
(٨٧) Burckhardt, op. cit., p. 202.
(٨٨) Boak, op. cit., p. 432.
(٨٩) Richardson, op. cit., p. 411.
(٩٠) Jones, Constantine, p. 14.
(٩١) Richardson, op. cit., p. 412.
(٩٢) LACT. mort. pers. 24.

تلك التى صاحب فيها دقلديانوس الى مصر ، ولعل ذلك كله يفسر عدم معرفة قسطنطين بأمور العقيدة المسيحية • ويدعم ذلك حقيقتان ، فقسطنطين بعد ما تراءى له فى السماء اثنـــاء صحوه ، وعلى الأرض ابان غفوته ، على حد زعمه أو ادعاء يوساب ، قبل معركة القنطرة الملفية ، دعا اليـــه حاملى أسرار الديانة المقدسة ، كما اخبـــرنا يوساب ، وطلب اليهم تفسير ذلك ، فأخبروه حقيقة الأمر كما قدمنا ، وهذا فى حد ذاته يدل على أن قسطنطين لم يكن حتى هـــذا الحين يعى من أمر العقيدة المسيحية شيئا ، رغم وجود أساقفة مسيحيين فى معيته آنذاك مثـــل هوسيوس • ورغم أن يوساب يذكر أن حالة قسطنطين أثناء اقامته بالبلاط الامبراطورى فى نيقوميديا لا تختلف عما كان عليه الحال بين موسى وفرعون ، وأنه كان لا يكف عن الصـــلاة والضراعة ، ولم يكن يشارك الامبراطور وقيصره أى لون من ألوان حياتهم المفتقرة الى التقوى والصلاح(٩٣) •و الحقيقة الثانية أن فكر قسطنطين حتى سنة ٣٢٤ لم يكن يدرك شيئا من مسائل اللاهوت المسيحى ، وذلك واضح كل الوضوح فى رسالته(٩٤) التى بعث بها الى كل من اسكندر وآريوس رجلى الدين لمسيحى فى كنيسة الاسكندرية ، عنـــدما أتاه نبأ تخاصمهما حول مسائل كريستولوجية ، فكانت الرسالة كلها تقريعا للرجلين ، بسبب السماح لنفسيهما بفتح باب المناقشـــة فى هـــذا « الموضوع الذى لا طائل وراءه) والخوض فى « مسائل جدلية لا توائم العقل » والجدل حول « أمر تافه للغاية » و « ليس له أدنى أهمية جوهرية » • وتلك أمور لا يمكن لباحث أن يسقطها من حسابه عندما يثور الجدل حول مسيحية قسطنطين •

ويبدو أن قسطنطين قد سار على خطو والده فى هذا الاعتقاد التوحيدى الذى ختطه لنفسه(٩٥) ، ذلك أن أباه يرجع فى نسبه لأمه الى الأمبراطور كلوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ ـ ٢٧٠)(٩٦) ، فلما غـــدا لماكسيميان قيصرا سنة ٢٩٣ حمل لقب الأسرة التى يكنى بها ذلك الأوغسطس،

---

(٩٣) EVSEB. vita Const. I, 12, 19.
(٩٤) Ibid. II, 69.
(٩٥) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 43.
(٩٦) Burckhardt. op. cit. p. 45.

وكان ماكسيميان قد نسب نفسه ، توثيقا لعرى الصداقة بينه وبين دقلديانوس، الى هرقل Hercules الذى كد تحت هـــدى أبيه جوبتر Jupiter لنفع البشرية ، وقد وضع دقلديانوس نفسه بذلك أبا لماكسيميان حيث أرجع أصله لرب الأرباب(٩٧) ، وقد فعل قسطنطين مثلما فعـل أبوه من قبـل ، فأصبح ضمن عداد الأسرة الهرقلية منذ قبل صداقة ماكسيميان وتحالفه عام ٣٠٧ ، وكان ذلك شيئا طبيعيا يتمشى مع السياسة التى رسمها لنفســه قسطنطين فى تلك الآونة ، فلما دخل روما عقب وقعة القنطرة الملفيـــة نزع نفسه من قائمة الهرقليين وأعلن انحداره من سلالة كلوديوس ، وعليه فقد أظهر نوعا خاصا من التعبد للشمس التى لا تقهر ، العبـادة الفضلى لدى سلفه الأثير وأبيه(٩٨) · وظهر ذلك فى العملة التى ظل يضربها حاملة هذا الرسم حتى عام ٣٢٣(٩٩) ·

وفى سنة ٣٢١ قرر قسطنطين جعل يوم الاحد عيدا أسبوعيا(١٠٠) ، ولكن الامبراطور لم يدع هذا اليوم أبـــدا بيـوم السيد ، بل أسماه يوم الشمس dies solis مؤكدا بذلك قدسيته بالنسبـة للشمس ، وعلى ذلك يمكن القول ان قسطنطين قد عمد الى هـذا الاسم الذى لا يمكن أن يضايق مسامع رعيته الوثنية(١٠١) ·

ولم يكن ما تم الاتفاق عليه بين قطبى ميلانو عام ٣١٣ ونشرته رسالة نيقوميديا ، فى جانب المسيحيين أو انحيازا لهم كما قد يبدو ، ولكن الحقيقة أن الزعيمين أعطيا لهذه الفئة المستضعفة حقا كانت قد حرمت منه فترة من الزمن طويلة بلغ مداها القرون الثلاثة ، وذلك جلى فيما كانت تضغط عليه الرسالة باصرار فى منح الحرية الدينية للأناسى جميعهم حسبما تهـــوى أفئدتهم ،ولم يكن قسطنطين ورفيقه فىهذا المضمار صاحبىسبق ، فقد سبقهما الى ذلك جاليريوس سنـة ٣١١ بل وجاللينوس أيضـــا فى القرن الثالث ·

---

(٩٧) Jones, Constantine, pp. 13 - 14.
(٩٨) Ibid. 66.
(٩٩) Latourette, Christianity, p. 92.
(١٠٠) EVSEB. vita Const. IV, 20.
(١٠١) Gibbon, op. cit. II, p. 308, n. 8.

وكانت البواعث التى حفزت الامبراطورين على انتهاج هـــذا السبيل هـو الحفاظ على سلام الامبراطورية وامنها كما افصحت عنـه رسالة نيقوميديا كذلك ، وهى فى حقيقـــة أمـرها دوافع محض سياسية(١٠٢) · وفى ذلك يقول فازيلييف « لقـد منح قسطنطين وليكين المسيحية نفس الحقـــوق التى كانت تتمتع بها الديانات الأخرى بما فيها الوثنية(١٠٣) ·

معنى ذلك أن المسيحية لم تحقق على الديانات الأخرى تفوقا ملحوظا ، وان كان انهاء الكيان غير الشـرعى للمسيحيين فى الامبراطورية ، واعلان الحرية العقائدية التامة قد قلل من شأن الوثنية بصفتها السابقة ديانة الدولة الرسمية وذلك بوضعها فى مصاف العقائد الأخـرى(١٠٤) ، ولم نشهد من قسطنطين مراسيم تحرم عبادة الأرباب الوثنية ، أو توقع بالوثنيين من أجل ديانتهم لونا من الاضطهاد كتلك التى عاناها المسيحيون على عهـد الأباطرة الأسلاف · حقيقة منع قسطنطين – كما أنبأنا يوساب – بعض الطقوس الخاصة بتقريب الأضحيات ، أو بتقديمها على الاطلاق(١٠٥) ولكن المعـابد الوثنية ظلت مفتوحة للعبادة العامة(١٠٦) هذا على حين أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية ، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، مخافة الانقسام فى الدولة · وقد جاء فى المرسوم الأول :

« على رئين هـــذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين Novatians **والفالنتينيين** Valentinians **والماركيونيين** Marcionites **والبيالصـــة** Paulians **انتم ايها البلهاء** Cataphrygians **وجميعكم يا من تعضدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية · انتبهوا الى انكم بنسيج زيف وغـــرور ، وسام الضلالة ومهلكها ، تحيكون عقيدتكم · من أجل ذلك ، وبـكم تصاب بالداء كل روح طيب ، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم ، يا كارهى الحق · يا أعداء الحياة · يا أحلاف الخراب · ان آراءكم كلها للحقيقة ضد ، تنضح بالخسة ،**

---

(١٠٢) C.M.H. I, p. 5; Thompson & Johnson, op. cit., p. 31.
(١٠٣) Vasiliev, op. cit. I, p. 52.
(١٠٤) Id.
(١٠٥) EVSEB. vita Const. II, 45, IV, 23.
(١٠٦) Richardson, op. cit. n. 1 c. 45 p. 511.

تغص بالسخافات والأوهام • بها تصوغون النفاق ، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الايمان • بآثامكم دوما تحت قناع التقوى ، تملأون بالدنس كل شىء ، وتنفذون بعميق الجراح فى نقى الضمائر ، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار • ولكن مالى أطيل ؟ ان الحديث عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه • فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة •• يقصر عن سردها يوم ، وكم يحسن بالمرء أن يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن الطوية • انى لأسائل نفسى •• علام الصبر اذن على شر مستطير ، خاصة أن هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل • لم اذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث ؟ وما ذلك الا بأن نعلن على الملأ الاستياء(١٠٧) » •

ومكث قسطنطين غير بعيد ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرر فيه ما سبق أن حذر به فى السابق يقول :

« أما وقد ضاق الصدر عن تحمل وبل ضلالكم ، فانا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أى اجتماع • وبهذا أصدرنا أوامرنا •• نخرجكم من ديار جمعتكم ، وامتدت ارادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة • فلتدعوا اذن ذلك النفر منكم ، الراغبين فى اعتناق دين الحق ، ليسلكوا سبيل الصواب بالانضواء فى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها فى زمالة مقدسة حيث يستأهلون الوصول الى الحقيقة • ومهما يكن من أمر فان هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا ، نعنى ميلا مزدوجا لدى الهراطقة والمنشقين تعسا ملحدا • فانه من واجب الوفاء بالنعمة ، التى بفضل الرب منحنا ، أن ندأب لنخرج أولئك الذين عاشوا فى الماضى يحلمون

---

(١٠٧) EVSEB. vita Const. III, 64.

بنعمة المستقبل ، من الشذوذ والآثم الى الصراط المستقيم ، من الظلمات الى النور ، من الضلال الى الحق ، من الهلاك الى النجاة ، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا ـ كما قيل من قبل ـ بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة ، أقصد دور الصلاة ، ان جاز استخدام هذا اللفظ ، التى يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة ، ومصادرة أى مواضع لصالح الدولة ، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء . فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد فى السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما(١٠٨) .

وأول ما نسجله على هذين المرسومين ، والثانى منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التى جرى فى ميلانو رسمها سنة ٣١٣ ، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم سياسة ميلانو « سائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم ، وأن لايحرم أى انسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين ، أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه » . ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه ازاء سائر العقائد . بل لقد ذهب الى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك ، وليس حتما أن يتمثل الاضطهاد بايقاع العذاب البدنى بهم ، ولكنه أخذ هنا شكلا آخر فى تحريم اجتماعاتهم ما ظهر منها وما بطن ، ومصادرة دور عباداتهم ، وهى اجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك . ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة . فقد ذكرنا أن الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية ، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة الى عدد من الفرق قليل أو كثير ـ أما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية فى الدولة ، وأضحى لأتباعها صوت مسموع الى جوار أتباع الديانات الأخرى ، فان أى انقسام فى الرأى بين أولئك الاتباع لابد وأن يضر بالوحدة العامة

---

(١٠٨) EVSEB. vita Const. III, 65.

للامبراطورية · ومن ثم عول قسطنطين على القضـــاء على أى مظهر من هذا النوع · وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية ·

هذان اذن مرسومان أصدرهما قسطنطين ضد فرق مسيحية وقفت من الكنيســة الكاثوليكية مناوئة ، تفوح من جنباتهما رائحـــة عنف وتهديد ، وصيحات حرمان وتجريد ومصــادرة ، على حين لم يصدر تجـــاه الوثنية وتابعيها شيئا من هذا القبيل ، ولم يخاطبهم بهذه اللهجة من العنف والصرامة، وما فعل قسطنطين ذلك الا خوفا من تعميق هوة الفرقة فى الكنيسة ، ورأبا لصدع يزلزل وحدتها ، وقد يمتد أثره فيصيب بالهزات الدولة ، وبالانقسام امبراطورية ظل يكـدح زهرة شبابه ورجولته من أجـــل وحـدتها وحكمها فـــردا ·

لقد كان أخشى ما يخشاه قسطنطين انقساما فى امبراطورية أتم على التو توحيدها ، فأدخل فى روع نفسه وجموع رعيته المسيحية أن خلافا بينهم لابد مصيب دولتــه بالدوار ، ومن ثم ماكان ليقبـل مطلقا أى شقاق يقع فى صفوف الكنيسة ، وهذا واضح من صيغة هـــذين المرسومين ، ومن موقفه ازاء المشكلتين الدوناتية والمليتية ، والنزاع الآريوسى ·

ولكن ماله يحرص على وحـــدة الكنيسة ويربط بها وحـــدة الدولة ، والمسيحيون كما علمنا يمثلون فى الامبراطورية أقلية مستضعفة ، والوثنيون رغم كثرتهم أشد منهم انقساما فى أربابهم ؟

يجيب المؤرخ الانجليزى هربرت فيشر H. Fisher عن ذلك بقـــوله : « لم يغب عن بصيرة امبراطور حصيف مثل قسطنطين ، أن اتخاذه الأولياء من فئـــة قليلة من الناس يحـدوها النظام ، ويهديها الايمـــان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى(١٠٩) · ويقول ول ديورنت : « حقيقـــة أن أتباع هـذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة · ولكنهم كانوا بالقياس الى غيرهم قلة متحـــدة مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة الى عدة شيع

---

(١٠٩) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٧ ·

دينيـــة ، وكان من بينها عـــدد كبير من النفوس لا نفوذ لهـــا فى الدولة ولا عقيدة(١١٠) · ولقد أمست الوثنية ديد باهتا ، وهيهات لمن تلك صورته أن تنجو على ظلاله الامبراطورية ·

وقد لمس قسطنطين هذه الناحية بنفسه ابان تلك الفتـرة التى قضاها فى نيقوميديا ، حيث شهد بعينى رأسه تلك التحـــديات التى أبدتهـا القلة المسيحية فى وجه السلطات الحاكمة ، ومـدى ما تحملته الجموع المسيحية من ويلات دون أن يتزعزع ايمانها أو تكص على عقبيهـا ، وأدرك أيضـــا أن الوثنية التى يجاهد الأباطرة لبعثها ، قـد دخلت فى طور من الكهـــولة مميت ، وعلى ذلك أيقن قسطنطين أن لقـــدر يجرى فى صف هـــذه القلة المستضعفة ، ولو وجدت من البشر أحـــداً يمد لهـــا يد عون لسمت على ما عداها ، ولسبحت دوما بحمده ·

ولم يمد قسطنطين للمسيحية فقط يد عون ، بل بسط لها راحتيه لتعلو بهما لا عليهما – سمت رفعة وازدهار · لقد كان قسطنطين يدرك مثل سلفه العظيم أوغسطس أن الامبراطورية فى حاجة الى بعث أخـــلاقى جديد ، بعد أن هوت فضائل الرومان الأقدمين خلال عصر قد سلف ، شهد فقدان الرومان الثقة فى أربابهم ، نتيجة لحروب اهلية وضعت على التو أوزارها ، ولفوضى عامة تردت فيها الدولة وجهازها الادارى بعد أن أثبت نظـام الحـــكومة الرباعية الدقلديانى فشله ، ولأهواء وسطامح رفاق كان كلهم يتوق الى حكم الامبراطورية · وكانت وسيلة البعث الأخلاقى بعد هذا الانهيار تعتمد على الدين ، وترسم قسطنطين خطـا سلفه ، فبينما أحيـــا أوغسطس العبادات القديمة ، واحتضن ديانات جـديدة من الشرق جاءت ، أبقى قسطنطين على الوثنية وأعان أيضا ديانة من الشـــرق أتت ، وكان يوقن تماما أنه بعونه اياها قادر على أن يضيف الى جنده فيلقا آخر يسبح بحمـــده ويشكر له جميل نعمائه ، فى وقت لا تجد فيه الفيالق الأخرى مبررا واحدا للتخلى عنه ما دام هو على دينها مبق ·

ولقد استطاع قسطنطين أن يأسر الكنيسة بما أغدقه عليها من الخيرات،

---

(١١٠) ديورنت : قصة الحضارة ، مجلد ٣ ج ٣ ص ٣٨٨ ·

وبما أولاها من نعم ، تكسب ولاء رجالاتها وتأييدهم ، وكان الامبراطور فى مسيس الحاجة لمدد هؤلاء القـوم يعتمد عليهم فى تسكين خواطر رعاياهم لمـا يعلمه عن نفوذهم الكبير عليهم · لقد غدا رجـال الكنيسة فى حكومة قسطنطين « شرطة نبيلة » أمل فيها لامبراطور أن تحفظ بالهـدوء الأمن ، وتنشر بالسكينة السلام · ويقول سباين « لقد كان السبب الحقيقى لاعتراف قسطنطين للكنيسة بمركز قانونى خاص هـو ما تخيله عن قدرتها على مد تأييدها للدولة »(١١١) ·

يقول ول ديورنت(١١٢) ـ « لقـد أعجب قسطنطين بجـودة نظـام المسيحيين ، وطاعتهم لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخـرة ، ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان · ولقـد تعلم المسيحيون على يد رؤسائهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، وكان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان ، وهذا النوع من الحـكم يفيـد لا محالة من تأييد الدين · وقد بدا له أن النظـام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية ، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها » ، وليس ببعيد عن هذا الحديث قول صاحب كتاب « المسيحية والثقافية الكلاسيكية » من أن الاستبداد والحكم المطلق الذى يتطلب كبت الحرية السياسية لا يحمل بالضرورة عداء للعقيدة ، ففى هذا النظام من الحـكم وجدت الكنيسة ، وما كان قد تبقى من التقاليد الجمهورية القديمة ، القواعد التى يمكن أن يتقارب عليها الاثنان · وفى قسطنطين وجـدا حاميا لهما ، لقـد كانت جسـارة الامبراطور تكمن فى تلك الحقيقة الواضحة وهى أنه وجد الفرصة السانحة فاهتبلها(١١٣) ·

من هـذا الجـانب نظر الدارسون الى مسيحية قسطنطين ، معللين عونه للمسيحية تعليلا سياسيا ، متكئين على ما راكب عطفه على المسيحيين

---

(١١١) تطور الفكر السياسى ، جـ ٢ ص ٢٧٢ ·

(١١٢) ديورنت : نفس المصدر والصحيفة ·

(١١٣) Cochrane, op. cit. p. 182.

من سلوك كانت وحـدة الامبراطورية هدفه ومنتهاه ، وارضاء كل العناصر فى الدولة وسيلته ومسعاه ٠

يقول استروجورسكى Ostrogorsky ٠٠ من اليسير على المرء أن يجد من الأدلة ما يدعم وجهتى النظر المتضادتين بشأن مسيحية قسطنطين٠ ولكنه بدا واضحا للعيان أن سياسة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لم تثمر غير الفشل ، وظهر أن الاتجاه الشرقى فى الامبراطورية يعد مستحيلا مع استمرار العداء نحو الديانة المسيحية ، وقد أثبتت الأحداث أن قسطنطين كان رجلا ذا خبرات مع كل من الوثنية والمسيحية ، ولم يكن اتخاذه جانب المسيحية فى عام ٣١٢ يعنى أنه كرس نفسه لهـذه العقيدة وحدها محطما كل التقاليد الوثنية ، وأنه أصبح مسيحيا فى احساسه على النحـو الذى سيصبح عليه خلفاؤه من بعد ، فقد سمح بممارسـة الطقوس الوثنية ، بل وشارك فى بعضها أحيانا وخاصـة ما يتعلق باله الشمس ، وكان اعتبار المسيحية دينا وحيدا فى الدولة يبدو شيئا غريبا بعيدا عن العقل فى عصر كانت أبرز صفاته ميـوله الى المفاضلة ، ولابـد أن ذلك هو عين ما بـدا لقسطنطين(١١٤) ٠

أما جونز فيقول ان تحـول قسطنطين الى المسيحية يرجع الى خبرة دينية ، ولو أن دوافعه الأولى كانت اتمام السيادة العالمية ، ومن أجل هذا ظل حتى النهاية يستمد عونه من الرب لا من البشر ، ورغم ذلك لم يكن يهتم أو يعرف شـيئا عن فلسفـة المسيحية وآدابها عنـدما أصبح مهمتا باله المسيحيين ، وكان ببساطة يرغب فى أن يسجل الى جانبه دائما تلك القـوة الالهية التى اعتقد أنها هدته(١١٥) ٠

على حين يحـدث نورمان كانتور قائلا ٠٠ من الواضح أن قسطنطين لم يكن قديسا ، ولكنه رأى نفسه رجلا صاحب رسالة ، دعى لينقـذ الدولة الرومانيـة ويعضد الكنيسـة المسيحية ، وجمعت أفـكاره المهمتين فى خط

---

(١١٤) Ostrogorsky, op. cit. p. 43.
(١١٥) Jones, Constantine, p. 102.

واحد . ووعى قسطنطين باحساسه أن الكنيسة يمكن أن تكون للدولة عمودها الفقرى ، ومن ثم فقد بذل محاولات يائسة ليحتفظ بوحدة الكنيسة مؤمنا ان الاله قد وهبه تفوضا شخصيا من أجل هذا المبتغى(١١٦) ٠

ويجىء دور بوركهارت ليدلى بدلوه فى هذا الموضـــوع فيخبرنا أنه كثيرا ما تبذل محاولات للتغلغل فى ضمير قسطنطين العقائدى ولرسم صورة للتغييرات التى يحتمل أنهـا طرأت على معتقداته الدينية ، وهـــذه كلهـا محاولات لا طائل وراءها ٠ اذ أنه فى حالة هذا الرجـــل العبقرى ، الذى شغلت مطامحه وتعطشه للسلطان كل لحظـة من لحظات عمره ، من المحال أن يتواجد موضوع حول مسيحية ووثنية ، حول تدين نابع عن ايمان أو عدم تدين على الاطلاق ، مثل هذا الرجل بالضرورة لا دينى ، اذا توقف للحظة واحدة ليختبر شعوره الدينى الحق لأدى ذلك الى التهلكة ٠ فعندما أدرك قسطنطين أنه كان مقـــدرا للمسيحية أن تغدو قوة عالمية اتخذها أداة من وجهة النظر تلك على وجه التحديد ٠ لقـد كان قسطنطن على استعداد لان ينجز ويحتضن كل ما من شأنه أن يوسع دائرة سلطانه الشخصى(١١٧) ٠

ويجزم فيشر بأنه ليس فى استطاعة باحث أن يجـرؤ على التأكيد بأن ذلك الامبراطور العســكرى القـادر كان على الدين المسيحى ، لانه وان لم يكن من المستطاع اتهامه بالقاء الأسرى من الجـــرمان للوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظـارة ٠ فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه ٠ على أن جرائم القتـل لا تلبث أن تصير نسيا منسيا فى عصر يطفح بحوادث العنف والحرب ٠وسرعان ما اختفت نقائص قسطنطين تحت ستار الأعمال المجيدة التى جعلته الحوار الثالث عشرة فى عداد الحواريين(١١٨) ٠

ويتساءل فى النهـاية ول ديورنت ٠٠ ترى هـــل كان قسطنطين حين تحول الى المسيحية مخلصا فى عمـه هذا ؟ وهـــل أقدم عليـــه عن عقيدة دينية ؟ أم هل كان هذا العمل حركة بارعة أملتها عليـه حكمته السياسية ؟

---

(١١٦) Cantor, op.cit. p. 47.

(١١٧) Burckhardt, op. cit. pp. 292-293.

(١١٨) فيشر : المصدر السابق جـ١ ص ٦ ٠

اكبر الظن أن الرأى الاخير هو الصواب . بعـــد أحاط قسطنطين نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين ، وقلما كان بعـد تحوله الى الدين الجديد يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس ، ولم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحـــدة الامبراطورية ، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ، يستدعيهم اليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم ، ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ ، ولــكن الآية انعكست فكانت المسيحية وسيلة لاغاية(١١٩) ٠

خلاصة القـول أن الكنيسة المسيحية كانت فى مطلع القـــرن الرابع أشبه شىء بغريق ألقاه قدره فى بحر لجى ، يتقاذفه الموج من كل ناحيـة ، ويغشاه الموت من كل مكان ، وهو يأبى هـذا ويصـــارع ذاك ، يتلفت يمنة ويسرة عله يجد فى النجاة بارقة أمـل ٠٠ وكان قسطنطين قارب النجـــاة للكنيسة المسيحية والمسيحية ٠٠ فلم تلبث أن تعلقت به ، بل وألقت بنفسـها فى جملة واحـدة ٠ بلا تردد ، وبلا وعى ، وفضلت أن تغوص فى القاع بدلا من أن يبتلعهـا اليم ٠ وأدرك قسطنطين بثاقب نظره كل ذلك ٠ بل ولابد أنه كان يدركه كله قبلا ، ومن ثم مـد فى اللحظة الحاسمة يده لانتشال الكنيسة وقد أشرفت على الهلاك ، وساعده على ذلك مجريات الأحداث ، فحفظت له الكنيسة جميل أنعمه ، ففرض هو عليها بالتالى قاهر ارادته ٠

لقد حاولت الحكومة الوثنيـة أن تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية ، فأخفقت فى ذلك ، وكان النجاح حليف قسطنطين حين حاول أن يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة(١٢٠) ٠

فعندما اختار يوم الأحد عيدا أسبوعيا ، أسماه يوم الشمس ، ومازال حتى يومنا هذا يحمل الاسم نفسه Sunday ، ولما اختـــار الصليب ـ كما تقول الرواية التى دبجهـا يوساب القيســارى مؤرخـه ومداحـه ـ شعارا لجنوده ، تصوره فى هيئة لاتغضب الوثنيين ، وهم كل جيشه ، فجاء صليبه

---

(١١٩) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٧ ٠

(١٢٠) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥ ٠

يضم الحرفين الأولين من اسم المسيح فى اليونانية · وهو شكل مالوف للوثنيين بحيث لم يثر أحد منهم ضده · والحرفان هما « الخى × » و « الرو · P. » [خريستوس Christos] فجمع حوله بهذا قلوب المسيحيين فى الغرب ـ على قلتهم ـ ولم يغضب فى الوقت نفسه رعيته الوثنية ·

على أن الذى تجدر الاشارة اليه ، مايذكره مؤرخو الكنيسة من أن قسطنطين قد تناول سر المعمودية وهو على فراش الموت ، ويعتبرون هذا دليلا واضحا على مسيحية قسطنطين ، ويشايعهم فى ذلك عديد من المؤرخين المحدثين الذين يعتبرونه أول امبراطور مسيحى ، باعتبار أن الكنيسة لم تكن حتى القرن الرابع الميلادى وبعده تصر على اتمام طقس العماد خلال العام الأول من الميلاد ، حتى تترك الباب مفتوحا أمام من شاء من الوثنيين للدخول فى المسيحية ، وليس أدل على ذلك من أن أشهر رجالات الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى ، القديس امبروز Ambrosius اسقف ميلانو عندما وقع عليه الاختيار للمنصب الكهنوتى تبين أنه لم يكن قد تلقى سر المعمودية (١٢١) · وبالمثل أيضا كان نكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية ·

وتناول قسطنطين المعمودية على فراش الموت لاينهض دليلا فى صف من ينادون بمسيحيته ، بل على العكس من ذلك ، فلايصلح القول ان الرجل كان مسيحيا ، بل يمكن القول ـ تجاوزا ـ انه مات مسيحيا ـ وفرق كبير بين هذه وتلك ·

وحتى لو سلمنا بفرض صحة هذه الرواية التى جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة ، لنشأت مشكلة عقيدية لها خطورتها ·· مفادها أن قسطنطين تلقى العماد على يد أسقف آريوسى ـ كما تلمح على استيحاء هذه الروايات نفسها ـ وتلك قضية أخرى ·

---

(١٢١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ـ الجزء الرابع ·